حبيب العمر

والسنوات الأخيرة من عمره

بقلم : محمد بديع سربية

obeikandl.com

عرف عن الكاتب اللبنانى المرموق الأستاذ محمد بديع سربية أنه كان من أبرز المقربين إلى قلب الموسيقار فريد الأطرش وحياته . .

ربما من أجل هذا كان الموسيقار الراحل قد اختاره قبل وفاته لكى يسجل قصة حياته ، وينشرها فى مجلته « الموعد » . . وهى المجلة التى يملكها وبرأس تحريرها .

وفى هذا الفصل لا يروى الأستاذ سربية فقط الذكريات التى سمعها من فريد الأطرش . . وإنما يروى أيضاً الذكريات التى عاشها معه . . فى بيروت وخارج بيروت .

obeikandl.com

كان يوم الخامس من حزيران « يونيو » ١٩٦٧ بداية تحول جديد فى حياة فريد الأطرش . .

فقد كان الموسيقار الراحل ، الذى اعتادت « الموعد » تسميته بـ « الموسيقار الحزين » عائداً من رحلة قام بها إلى الكويت ، وأراد أن يمضى فى بيروت ، وهو فى طريق عودته إلى القاهرة ، بضعة أيام كما اعتاد دائماً ، وشاءت الصدف أن يجد فى بيروت ، وفى فندق « البريستول » الذى اعتاد أن ينزل فيه كلما جاء إلى بيروت ، صديقه الحميم الموسيقار محمد عبد الوهاب وقرينته السيدة نهلة ، وهكذا ، بدلا من أن يمضى فريد إلى القاهرة سريعاً ، أطال إقامته أسبوعين ليتسنى له أن يبقى مع عبد الوهاب ونهلة أوقاتاً ممتعة يتوق دائماً إلى أن يقضيها معهما ! .

وخلال إقامته فى بيروت ، كنت ألتقى بفريد الأطرش كل ليلة ، وكثيراً ما كان يفتح قلبه لى ، لا ليحدثنى عن متاعبه الصحية فقط ، وإنما ليسرد لى سلسلة من المتاعب النفسية والعاطفية التى يتعرض لها ، ويتحملها بسعة الصدر لأنه غير قادر على مجابهتها كما كان يفعل فى أيام الشباب . وما كنت أسمعه من الموسيقار الراحل لم يكن جديداً على ، بل لقد كنت أسمع مثله على امتداد السنين والأيام ، مما جعلنى أتصور ، بل أتأكد ، من أن فريد الأطرش ، لكثرة إحساسه تتملكه عقدة الشعور بالاضطهاد ، وربما كان ذلك ناشئاً عن أيام العذاب التى مرت به فى طفولته ، وبداية حياته الفنية ،

وخصوصاً فى الفترة التى عمل فيها كعازف على العود ، ثم كمطرب ، فى صالة الراقصة بديعة مصابنى ، وفى الحفلات والأفراح . .

ومرة روى لى فريد الأطرش أنه وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، عمل كعازف على العود فى فرقة المطرب إبراهيم حمودة ، الذى كان أشهر مطربى ذلك الزمان ، وفى إحدى المرات ذهب المطرب الشهير ليغنى فى حفلة ساهرة تقيمها إحدى أميرات الأسرة المالكة . ورحبت الأسرة بكل حماس بإبراهيم حمودة ، ثم التفتت إلى فرقته الموسيقية ، فما كاد نظرها يقع على فريد الأطرش وهو يحمل عوده ، حتى صاحت بإبراهيم حمودة :

– يا باى . الولد السلمى ده دمه تقيل . . خليه يطلع برة ، مش قادرة أشوفه . .

وارتبك إبراهيم حمودة ، ولم يدر ماذا يفعل ، هل يتخلى عن الشهامة ويستجيب لوقاحة الأميرة المجنونة ، أو يرفض طلبها ويعرض نفسه لانتقامها ، وقبل أن يأخذ قراراً كان فريد الأطرش نفسه يخرج من قصر الأميرة وينقذ موقف المطرب الكبير ! .

ومن الرواسب التى خلقت فى نفس الموسيقار الراحل عقدة الاضطهاد أيضاً أنه عندما عمل فى صالة بديعة مصابنى ، كان يحس بالراقصة الكبيرة التى كانت يومها صاحبة نفوذ كبير فى الأوساط الراقية تعامله حسب ارتفاع أو انخفاض « ترمومتر » مصلحتها ، فإذا صفق الجمهور له فى ليلة كانت تحسن معاملته ، وتدعوه إلى مائدتها ، وتغدق عليه التكريم ، وإذا لم يصفق له الساهرون السكارى فى ليلة ثانية أشاحت عنه بوجهها ، وراحت تعامله بقسوة بالغة !

ولقد كبر الشعور بالاضطهاد فى نفس فريد الأطرش ، مع اتساع شهرته وتألق نجمه ، وصعود اسمه إلى القمم الفنية والعالمية ، ولهذا كان دائم الشكوى من عدم التقدير الذى يلقاه من بعض الأوساط الصحفية والرسمية أو من المؤامرات التى تحاك ضده من جانب بعض الفنانين ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يشعر بالتعويض عن هذا الاضطهاد ،

بما يلقاه من تقدير وتكريم وحب من جانب الجماهير المصرية ! .

وفى إحدى الليالى ، كنا فى أحد زوايا صالون « البريستول » فى بيروت وكان يستعد للعودة إلى القاهرة ، قال لى فريد الأطرش :

– لقد وقفت معى موقفًا كريماً ، عندما هاجمت الذين هزءوا بى فى إحدى المجلات ، ورسمونى كاريكاتيراً بصورة « حمار شهاب الدين » ، وكان للمقال الذى كتبته عنى وقعه الحسن عند المنصفين وأولاد الحلال . وأحب أن أصارحك الآن بأننى مع كل حبى لمصر فأنا أشعر بأن أيديًا خفية كثيرة تحاربنى فى الوسط الفنى ! .

وقلت له :

– يا أخى فريد ، لا أريد لك أن تضخم الأمور ، وترى فى كل بادرة عدائية تحاك من شخص ما ، صورة مؤامرة عليك . ثم إنك فنان كبير تجاوزت شهرتك الآفاق المحلية ، ووصلت إلى الآفاق العالمية ، ولم يعد هناك من مبرر لك للاهتمام بالأمور الصغيرة ..

وارتسم الأسى على وجه الموسيقار الراحل ، وقال لى :

– حتى لا تعتقد أننى أبالغ اسمع هذه القصة ، إن الإنتاج السينمائى اليوم هو فى أيدى مؤسسة تتبع القطاع العام « كان ذلك فى ربيع ١٩٦٧ » وقد استدعانى مسئول كبير فى المؤسسة ليبحث معى فى موضوع إنتاج فيلم لحساب المؤسسة أكون أنا البطل الأول فيه ، وعندما سألنى عن الأجر الذى أطلبه مقابل تمثيل دور البطولة فى هذا الفيلم ، قلت له إننى لا أطلب إلا الأجر الذى أتقاضاه عادة عندما أمثل أى فيلم ، وهو خمسة وعشرون ألف جنيه .. فهل تعلم ماذا كان رده على ؟ !

سألته :

– ماذا ؟ ! .. وافق طبعاً .. لأن هذا هو أجرك الفعلى من كل فيلم تمثله .. وعاد الأسى يرتسم على وجه الموسيقار الحزين وقال :

– أبداً ، إن وجه سيادة المسئول فى المؤسسة تجهم فجأة عندما سمع هذا الرقم ، وقال لى بلهجة ساخرة : أمال ليه أنا درست وخدت الدكتوراه .. مش أحسن كنت أعمل مغنى زيك .. وآخد المبلغ الكبير ده عن كل فيلم ..

وقلت محاولا تهدئة فريد الأطرش :

– ربما كان يمازحك ؟ !

أجاب :

أبداً . وقد اضطررت إلى الرد عليه بقوة ، وقلت له إن يوسع أى إنسان أن يكون دكتوراً فى الاقتصاد .. ولكن مش أى واحد يقدر يكون فنان مشهور .. وموهوب ! ! ومن يومها لم تعد مؤسسة السينما تتعامل معى . كما لم يعد بوسعى أن أنتج أفلاماً لحسابى . . وهكذا ترى أنى عاطل عن العمل ! .

وبالرغم من المرارة التى كانت تمتزج بكلمات فريد الأطرش ، فلم يكن قادرًا على إخفاء لهفته للعودة سريعاً إلى القاهرة ، بالرغم من أنه لم يكن مرتبطاً هناك بأى عمل فنى ، وكنت أعلم أن وراء هذه اللهفة حبًّا جديداً قد اشتعل فى قلبه ، هو حبه للنجمة الشابة سميرة أحمد التى التقى بها أمام الكاميرا فى فيلم « شاطئ الحب » ومن يومها أسرته بشخصيتها الجذابة ، ورقتها ، وبعدها عن السطحية ، وأحس بأنه أمام امرأة تختلف عن كل النساء اللواتى عرفهن فى حياته ! .

وفى بادئ الأمر أخذ فريد الأطرش يسعى إلى إقامة صداقة مع النجمة الناعمة بعيداً عن جو العمل ، فأخذ يدعوها إلى سهراته اليومية فى صالون بيته الذى كان ملتقى كل الأصدقاء والصديقات ، ولاحظ الجميع أن الموسيقار الذى ظل فترة طويلة بلا حب ، يبالغ فى رعاية سميرة أحمد والاهتمام بها ، وكان يجلس إلى المائدة ، ويعلمها قواعد لعبة « الكومى » ، ويضحك من قلبه عندما تسأله وبراءة الأطفال فى عينيها :

– اديله « باصلا » يا فريد ؟ ! « أى : هل أعطيه باصره يا فريد » !

وبالرغم من أن فريد الأطرش كان يحب أكثر ما يحب النساء القادرات على مشاركته السهر حتى مطلع الفجر لأنه يكره النوم مبكراً ، فإن قلبه لم يتحول أبداً عن سميرة أحمد التى كانت تستأذن بالانصراف إلى بيتها بمجرد أن تقف عقارب الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل ! .

وذات ليلة لم يطق الموسيقار العاشق الاستمرار فى كتمان عواطفه فأخذ سميرة أحمد من يدها إلى الصالون الشرقى فى بيته وقال لها :

« سميرة ! ! أريد أن أعترف لك .. لقد أحببتك من كل قلبى .. وأنت الوحيدة التى استطعت أن تمحى من ذاكرتى صورة النساء اللواتى عرفتهن فى حياتى ..

وابتسمت النجمة الناعمة وقالت :

– وتأكد أن هذا الحب ليس من طرف واحد ..

وهتف بفرح :

– يعنى ايه ؟ ! أنت كمان ؟ ؟

وهزت رأسها علامة الإيجاب .. ولكن فريد الأطرش توقف عند هذا الحد فى حديثه وفهمت سميرة أحمد من سكوته بأنه يريدها عشيقة له وليست زوجة ، وهى ما اعتادت أن تكون عشيقة لأحد ، ولا تفهم أن للحب نهاية غير النهاية الطبيعية التى هى الزواج ، ومن هنا ، وعندما فهمت الحقيقة ، بدأت تقلل من زيارتها له .. وكلما ابتعدت زادت نار الحب فى قلبه اشتعالا ! .

وفى هذه الأثناء ، اضطرته أعماله للسفر إلى الخارج ، فأرسل لها سيارة « سبور » أنيقة ، وثلاثة حقائب كبيرة تحتوى على أغلى الملابس ، وأنواعاً مختلفة من أدوات الزينة ، وعندما اتصل بها مكتب فريد الأطرش ليبلغها عن السيارة والحقائب ، ويطلب إليها تسلمها كهدية منه ، كان ردها أنها تعتذر عن عدم قبولها !

وعندما اتصل بها صديق مقرب من فريد الأطرش ، وسألها عن سبب رفضها للهدية ، كان جوابها :

– أرجو أن يفهم الأستاذ فريد أن حبي له مهما بلغت درجته ، فإنه لن يدفعني إلى القبول بأن أكون عشيقته . . وإذا كان يحبني فعلا ، ويريد الارتباط ، فأنا لا أرى أمامه وأمامي إلا رابطة . . الزواج !

وبلغت الأخبار فريد وهو في الخارج ، فتألم لأن سميرة أحمد رفضت هداياه ، ولكنه لم يغضب لوضعها شرط الزواج لكي يستمر الحب بينه وبينها ، وإنما تضاعف حبه لها أكثر وأكثر ، وكان في شوق ملح للعودة إلى مصر ، واللقاء بها والتفاهم معها .. ولا أحد يدري ماذا كان يدور في ذهن فريد الأطرش وهو يستعد للعودة إلى مصر . هل كان يوافق على الزواج من سميرة أحمد ، أو أنه سيقطع علاقته بها ؟ ! أو يحاول إقناعها بأنه إنسان خلق للحب ولم يخلق للزواج ! .

وحدد فريد الأطرش لي موعد سفره .. وتواعدنا على اللقاء في صباح يوم السفر لأودعه وأسمع المزيد من أخباره وحكاياته ..

وفي الصباح ، كان فريد الأطرش في غرفته بفندق « البريستول » يعد حقائبه للسفر ، وقبل لحظات من انطلاقه نحو مطار بيروت ، رن جرس التليفون في غرفته ، وتلقفت أذنا فريد باستغراب صوت الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وكان سبب الاستغراب هو أن عبد الوهاب ودعه بالأمس ، ولم يتعود أن يصحو مبكراً ! .

وقال عبد الوهاب :

– فريد .. أنت مش حتسافر يا حبيبي ..

وصرخ فريد الأطرش :

– ليه ؟ ! خير إن شاء الله يا أستاذ ! .

قال عبد الوهاب بصوت يمتزج بالاضطراب :

– الحرب قامت يا فريد .. إسرائيل بدأت بالعدوان على مصر . والمطارات أقفلت ! .

وجمد فريد الأطرش فى مكانه .. وعاد يفك حقائبه ..

كان ذلك اليوم هو يوم الخامس من حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ..

ومن ذلك اليوم بدأ التحول الجديد فى حياة الموسيقار الراحل .

لقد قرر فريد أن يقيم فى بيروت مؤقتاً .. ولكن الظروف جعلت من « مؤقتا » هذه شيئاً دائماً . لقد بدأت تصبح لديه ارتباطات عمل مستمرة . . كان على رأسها عمله فى فيلمه الجديد مع السيدة فاتن حمامه .

فما إن أطلت النجمة فاتن حمامة على مطار بيروت ، حتى وجدت الموسيقار فريداً الأطرش بانتظارها وفى يده باقة من الورد قدمها لها ترحيباً بها ، وتعبيراً عن امتنانه لها بعد أن رضيت أن تخرج من عزلتها السينمائية التى طالت ثلاث سنوات لكى تمثل دور البطولة فى فيلمه « الحب الكبير » ، وكانت من قبل قد مثلت معه فى مصر فيلم « لحن الخلود » الذى هو قمة أفلامه السينمائية ، فضلا عن فيلم آخر هو « من غير وداع » ..

وقد حرص فريد الأطرش على أن يأخذ رأى فاتن حمامة فى كل شاردة وواردة تتعلق بفيلم « الحب الكبير » لأنه كان شديد الإعجاب بكل رأى تبديه ، ويعرف أن الممثلة الكبيرة عندما تمثل أى فيلم ، فهى لا تكتفى بأن تقوم بالدور المطلوب منها فى الفيلم وخلاص ، بل تحاول أن تعطى كل خبراتها من أجل أن يتحقق النجاح الفنى الكامل لهذا الفيلم ..

وقبل أن تبدأ فاتن مع فريد الأطرش رحلة العمل فى الفيلم قال لها :

– أولا ، أحب أن أستشيرك بشأن الممثلين الذين سيعملون معنا فى الفيلم . ايه رأيك بصديقى العزيز عبد السلام النابلسى ؟ ؟

وضحكت فاتن وقالت :

— وهوه معقول فريد الأطرش يمثل فيلم وما يكونش معاه عبد السلام النابلسى ..

وكانت النجمة الكبيرة على حق فيما تقوله ، فإن صداقة فريد الأطرش وعبد السلام النابلسى كانت مضرب الأمثال ، فقد كان من النادر أن تدخل بيت فريد الأطرش ظهراً أو مساء ، فى بيروت أو فى القاهرة ، ولا تجد فيه عبد السلام النابلسى ، ومن أبرز الأحداث فى حياة الصديقين أنهما فى العام ١٩٥٠ ، نالا الجنسية المصرية فى يوم واحد ، وكانت هذه أكبر مفاجأة فى حياتهما ، بعد أن أقاما فى مصر زهاء عشرين عاماً دون أن يحملا جنسية البلد الذى اختارا البقاء فيه ... وأعطاهما الكثير من المجد والتألق ، مما لم يكن يتوفر لهما لو أن كلا منهما بقى فى بلده ..

وعندما أقام فريد الأطرش فى بيروت بصفة دائمة وكان يتردد عليها مرة أو مرتين فى السنة فإنه لم يكن يفارق صديقه الحميم عبد السلام النابلسى الذى كان قد سبقه إلى الإقامة فى بيروت ، واشترى شقة فى عمارة « يعقوبيان » وكان فريد كلما دعى إلى حفله أو سهره ، يشترط أن يكون عبد السلام فى مقدمة المدعوين ، وكل يوم ، عندما كانت تخطر لفريد الأطرش أية أكلة شهية كان يتصل بصديقه الحميم على الفوركى يعد له هذه الأكله لأنه سوف يجىء لتناول الغداء عنده ، وكان عبد السلام والشهادة لله ، طباخاً ماهراً ، وسخيًّا على مائدته ومضيافاً من الطراز الأول ..

ولقد اتفق فريد الأطرش وعبد السلام النابلسى طوال عشرتهما على أشياء كثيرة ، والأمر الوحيد الذى كان يختلف فيه الصديقان هو أن فريد الأطرش لم يكن يهتم بصحته ، برغم أنه مصاب بثلاث ذبحات قلبية ، ويفرط فى السهر والتعب واللعب لأنه كان يؤمن بأن العمر واحد والرب واحد ، أما عبد السلام النابلسى فكان على عكسه تماماً ، يخاف على صحته ، ويرتعش خوفاً من أى عارض صحى ، ولا يتحرك إلى أى مكان إلا وتحت إبطه صيدلية متنقلة . . .

وكانت فاتن حمامة تعلم أن بين فريد الأطرش وعبد السلام النابلسى صداقة روحية عميقة ، ولذلك لم تتردد فى الموافقة على أن يكون عبد السلام من نجوم « الحب الكبير » خصوصًا وهى تعلم أنه يضفى على أى فيلم يمثله جوًّا من المرح ..

وعاد فريد الأطرش يسأل فاتن حمامة :

– ويوسف وهبى .. ما رأيك به ؟ ! إنه سيمثل دور والدك فى الفيلم .. وردت فاتن حمامة فورا :

– يوسف وهبى ! ! إنه أستاذنا جميعاً ..

ويبقى هناك دور يحتاج إلى من تمثله فى الفيلم ، وهو دور السيدة الارستقراطية المستهترة التى تحاول أن تلعب بقلب بطل الفيلم « فريد الأطرش » وتبعده عن حبيبته « فاتن حمامة » .. وقال فريد :

– حتى الآن لم أجد فى بيروت واحدة تصلح لهذا الدور . لقد تعرفت بملكة جمال اسمها غلاديس أبو جوده « اسمها الفنى الآن حبيبه » ... ولكننى رأيت أنها لا تصلح لدور المرأة المستهترة ، فهى ناعمة ، ورقيقة ، وبريئة الوجه ..

وضحك وقال :

وأخاف أن أقع فى غرامها فعلا ..

وردت فاتن حمامه على فريد الأطرش قائلة :

– لا يا خويا .. احنا عاوزينك المرة دى تشتغل من غير حب ..

ورد الموسيقار الراحل قائلا :

وحياتك أنا خلاص ، بطلت الحب .. وحتى لما قعدت فى بيروت نسيت آخر حب لى فى مصر ..

وسألته فاتن بخبث :

– يا ترى مع مين كان الحب يا فيرى ؟ !

وبالصراحة التى تعودها ، أجاب فريد :

– مع سميرة أحمد .. لكن وشرفى ما حصلش أى علاقة بيننا ، مجرد حب انتهى بعدما قعدت أنا فى بيروت ..

وقالت فاتن :

اسمع يا فريد أنا رأيى أننا ندور على بنت جديدة ولبنانية وتمثل الدور ده .. ايه رأيك ؟

وهز رأسه بالموافقة ..

وبدأت العيون تبحث هنا وهناك عن سيدة لبنانية تصلح لأن تمثل الدور الثانى فى فيلم « الحب الكبير » وتم العثور عليها أخيراً ، وكانت السيدة ليز سركيسيان ، وهى زوجة أحد رجال الأعمال ، ومن محاسن الصدف أنها كانت ممثلة .. وأنها برغم زواجها لم تستطع أن تتخلى عن هواية التمثيل ، فلما سنحت لهـا فرصة الظهور على الشاشة السينمائية ومع من ؟ ! مع فريد الأطرش ، وفاتن حمامة ، وعبد السلام النابلسى ، ويوسف وهبى ، لم تتردد فى الموافقة ولو أدى ذلك إلى أن ترقص حياتها الزوجية على كف عفريت .. وهذا ما حدث فعلا بعد سنوات ! .

« على بركة الله .. نبدأ التصوير بعد أسبوع » ..

قالتها فاتن حمامة ..

ولكن فريداً الأطرش لم يدعها تكمل كلامها ، فقال :

– اسمحى لى أولاً أن أدعوك إلى حفلة أقيمها تكريماً لك . .

وأجابته فاتن :

– حفلة إيه ؟ هوه فى بيننا مجاملات يا فريد ؟

وأجاب الموسيقار الخالد :

– يا ستى ده واجب على ... ثم أنا حاكون سعيد جدًّا ، لأن الحفلة التى سأقيمها

تكريماً لك ، سوف تكون أول حفلة أقيمها فى بيتى الجديد الذى لم أسكن فيه إلا من مدة قريبة ! .

وكان فريد الأطرش قد ضاق فعلا بالإقامة فى الفنادق ، وخصوصاً بعد أن قرر إطالة إقامته فى بيروت ، فاستأجر شقة كبيرة . . فى « روف » عمارة أنيقة جديدة ، هى عمارة مدام أغيديان ، فى محلة « اللويزة » التى لا تبعد عن قلب العاصمة أكثر من خمس دقائق بالسيارة وكلف صديقه المهندس أغوب أصلانيان بعمل الديكورات لها ، وفعلا ، جاءت الشقة أنيقة وفخمة ، لا سيما بعد أن زينها فريد الأطرش بالمفروشات والتحف الثمينة ، وكانت الشقة مؤلفة من صالون كبير ، وملحق به صالون صغير ، وغرفة مائدة ، وغرفة نوم كبيرة للموسيقار الراحل ، وغرفة للتليفزيون ، وصالون شرقى ، وغرفتان للضيوف ، فضلا عن المطبخ ، والشرفة الكبيرة المطلة على بيروت من فوق . .

وفى هذه الشقة بالذات كان يقضى الموسيقار الراحل أكثر أوقاته ، ويقيم كل حفلاته ، وأحياناً كان يستغلها فى تصوير المشاهد الداخلية فى أفلامه ، أو يجرى فيها البروفات على أغانيه الجديدة ، أو الأغانى التى سيقدمها فى حفلات المسرحية . .

وقال فريد الأطرش لفاتن حمامة إنه سيكون فى منتهى السعادة بأن « يدشن » شقته ويبدأ حياته الاجتماعية فيها بحفلة يقيمها على شرف فاتن ، التى كان وجهها خيراً عليه فى كل فيلم . .

وقبلت النجمة الكبيرة الدعوة إلى الحفلة التى أخذ فريد الأطرش يهتم بتنظيمها واختيار المدعوين إليها ، وفعلا ، كانت الحفلة لذيذة ممتعة ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تدخل فيها السيدة سلوى القدسى وزوجها نور الدين القدسى ، إلى منزل فريد الأطرش ، وكانت فى الشهور الأخيرة تلتقى به فى مناسبات عادية ، أو تراه فى كازينو لبنان ، عندما كان يذهب مع شلته مساء كل سبت ، وتذهب هى مع زوجها ، إلى هناك ! .

فريد الأطرش كان ليلتها شعلة من المرح والحيوية ، وبلغ القمة فى خفة الدم ، وقال لمدعويه إنه تخيل نفسه امرأة ، وأخذ يمثل ، بمنتهى الظروف كيف يتحرك ، ويتكلم ويغازل ، لو كان امرأة ، ثم أكمل برنامج الضحك الذى أراد أن يسلى به مدعويه ، فروى لهم أكثر من نكتة ، واستلقت فاتن حمامة على ظهرها من شدة الضحك ، عندما روى لها نكتة عن نفسه ! .

قال فريد إن أحد المعجبين كان يتصل به باستمرار ، ويطلب إليه أن يكلمه ، فتجيبه الشغالة سنية :

– والله الأستاذ مش قادر يكلمك .. لأنه فى الحمام ! .

وعندما تكررت اتصالات المعجب ، وفى كل مرة يتلقى الجواب نفسه وهو أن « الأستاذ » فى الحمام ، صرخ فى سنية :

– هو الأستاذ وسخ للدرجة دى علشان يبقى فى الحمام ؟ ؟ .

وعلق فريد على النكتة ، واعترف للساهرين بأنه عندما يدخل الحمام لا يغسل جسده بالماء ، بل بالسبيرتو فقط ، وقال : وتفضلوا شوفو أنا نضيف إزاى ؟ !

سهرة ولا ألطف ولا أمتع ..

وليلتها فقط كانت سلوى القدسى ترى فريداً الأطرش عن قرب ، وتكتشف ما عنده من مزايا لم تكن لتعرفها من قبل فى اللقاءات العابرة التى جمعت بينهما ..

وليلتها أيضاً ، لفتت سلوى القدسى اهتمام فريد الأطرش ، بحلاوتها ، وأناقتها ، وجلستها ، ووجهها الضاحك دائماً ..

وعندما انصرف الساهرون من سهرة فريد الأطرش التى طالت إلى ما بعد منتصف الليل ، بقيت فى خيال الموسيقار الراحل صورة حلوة ، سلوى القدسى التى وجدت نفسها أيضاً تفكر بفريد الأطرش كثيراً ..

وطلع الصباح على سلوى وهى ما زالت تفكر ..

ومن هنا كانت .. البداية !

اعتاد الموسيقار فريد الأطرش الحياة فى بيروت ، بعد أن استقر فى بيته الأنيق فى « اللويزة » ووجد أنه قادر على أن يمارس فى بيروت النشاط الفنى الذى كان يمارسه فى القاهرة ..

ولعل أكثر ما جعل فريداً الأطرش يحس بالاطمئنان هو أنه كان يجد فى بيروت من التقدير والحب ما يلقاه فى القاهرة ، وكان فيلم « الحب الكبير » هو الذى جعله يطمئن أكثر فأكثر إلى أنه يستطيع فى لبنان أن يمارس نشاطه الفنى ، ويكسب كثيراً من هذا النشاط أى أن بيروت أصبحت بالنسبة له ميدان عمل جديد ، وليس مجرد بلد يقصده للتسلية والترفيه والسياحة ..

إن فيلم « الحب الكبير » الذى مثله الموسيقار الراحل وأنتجه على حسابه قد حقق نجاحاً شعبياً يفوق التصور ، كما در على فريد الأطرش أرباحاً جيدة لا تقل عن الأرباح التى آلت إليه من جميع أفلامه السابقة ، وإن كان قد اكتشف خلال عمله فيه أنه ليس قادراً على حمل مسئوليات الإنتاج ، مما جعله يقتنع بأن من الأفضل له أن تكون الأفلام التى يمثلها من إنتاج سواه ، وأن يبقى هو فى نطاق عمله الفنى فقط ، فيمثل ويغنى ويلحن ويتقاضى أجره الذى لا يقل عن مائة وخمسين ألف ليرة لبنانية ، وليهنأ من ينتج الفيلم بالأرباح التى تدخل إلى جيبه ، وهى لا تقل عن ضعف هذا المبلغ ..

وكانت مشكلة فريد الأطرش الوحيدة فى بيروت هى أن يجد شلة من الأصدقاء يرتاح إليها ، ويعيش معها ، وتعيش معه ولا تفارقه أبداً كما كان حاله وهو فى القاهرة ، ومن هذه الناحية فإن الموسيقار الراحل كان يحب ويفضل أن يكون له فريق من الأصدقاء لا يبتعد عنهم أبداً ، وبالرغم من أنه فنان مشهور ، وإنسان كبير ورجل يتميز بكل الصفات التى يمكن أن تجعل منه نجماً مشهوراً ، فإنه كان يبتعد عن الاختلاط بالمجتمعات الراقية ، ويتجنب حضور الحفلات الكبيرة ، وحتى إذا اضطرته المجاملة

إلى حضور أية حفلة ، فإنه كان يشعر بالاختناق ، ويسارع إلى اختصار وجوده فيها والعودة إلى شلة الأصدقاء التى لا يمل عن مجالستها وعشرتها أبداً ..

وذات يوم اضطر الموسيقار الراحل إلى حضور حفلة اجتماعية كانت تقام على شرف السيد كمال الأسعد ، رئيس مجلس النواب فى لبنان ، وفى منتصف السهرة ، سأله الرئيس الأسعد قائلا :

– يا أستاذ فريد ، نحن معجبون بك كثيراً ، فهل يمكن أن تسمعنا شيئًا من أغانيك هذه الليلة ..

وشعر فريد الأطرش بالإحراج أمام هذا الطلب ، ولكنه مع ذلك رد على الرئيس كامل الأسعد معتذراً له بأن حالته الصحية لا تسمح له بأن يغنى ، ثم ، بدون أن يشعر به أحد ، خرج من السهرة وعاد إلى بيته ، وقال لى ونحن معًا فى السيارة .

– هل عرفت الآن لماذا لا أحب حضور الحفلات الاجتماعية ، إنهم يريدوننى أن أغنى ، وربما كان ذلك دليلا على حبهم وتقديرهم لى ، ولست أستطيع فى كل سهرة أن أقف لألقى خطاباً أقول فيه إننى متعب صحيًا ، وإن الغناء فى سهرة خاصة وبدون فرقة موسيقية ليس عملا هينًا بالنسبة لى ، ولذلك ترانى أتجنب الحفلات والسهرات العامة ، ولا أستريح إلا مع الناس الذين ينسون أننى فنان ، ويعاشرونى كصديق وإنسان عادى ..

وفى ذلك الحين كان فريد قد اختار مجموعة الأصدقاء والصديقات التى لا يخرج من نطاقها أبداً ، وكان منهم صهره الوجيه رياض جنبلاط ، وقرينته السيدة كاميليا الأطرش ، ابنة المرحومة أسمهان ، والفنان عبد السلام النابلسى – رحمه الله – وزوجته جورجيت ، ومنتج الأسطوانات روبير خياط ، وغيرهم من الذين لم يكن عددهم يزيد على عدد أصابع اليد ، وكان فريد الأطرش يستقبل بين الحين والآخر الأصدقاء والصديقات من أهل الفن الذين يفدون إليه باستمرار من القاهرة ، فيرحب بهم بحرارة

ويدعوهم إلى العشاء فى بيته ، أو إلى الغداء فى فندق « البريستول » الذى كان مقرًّا له ظهر كل يوم ، يلتقى فيه بالناس الذين بينه وبينهم مواعيد عمل ، ولا يريد لهم أن يتعبوا أنفسهم فى الذهاب نهاراً إلى بيته البعيد زهاء عشرة كيلو مترات عن بيروت ! .

وعلى الرغم من أن الموسيقار الراحل كان قد استقر فى بيروت تماما ، وصار يذهب منها فى رحلاته السنوية إلى أوربا ثم يعود إليها ، فقد كان يلازمه الشعور دائماً بأن إقامته فى بيروت هى إقامة مؤقتة ، وأنه لا بد أن يعود إلى مقر إقامته الطبيعى فى القاهرة . .

والذين كانوا يسألونه عن سبب هجرته من مصر ، كان يجيبهم دائماً :

– ياناس ، أنا لم أهجر مصر ، أنا فقط أوزع إقامتى بين بيروت والقاهرة ، وأنا دائماً أوصى علنًا بأن أدفن فى مصر ، إلى جوار أختى أسمهان ، فما لو مت وأنا بعيد عن مصر ..

ويسألونه :

– ولكنك منذ حرب ١٩٦٧ لم تعد إلى مصر أبداً ..

فيجيب :

– لم أذهب إلى مصر هذا صحيح . ولكن بيتى فى القاهرة ما زال مفتوحاً ، ثم ، أنا مريض ، والمناخ فى لبنان يلائمنى أكثر ، ومجالات العمل الفنى أجدها هنا ولا أجدها هناك ، بعد أن أصبح الإنتاج السينمائى فى يد الدولة ، فضلا عن أننى أقدم للإذاعة كل أغنياتى بلا مقابل ..

ويسكت فريد الأطرش عند هذا الحد ولا يطيل الحديث فى هذا الموضوع ولكنه يعود ليهمس بأنه عاتب على الفنانين والمسئولين الذين لا يقدرونه كما يجب ، ويروى أنه أراد ذات يوم أن يسافر من القاهرة إلى بيروت لزيارة أمه المريضة ، ثم للذهاب

إلى طبيبه الخاص الدكتور جيبسون فى لندن ، فظل أكثر من شهر يحاول الحصول على تأشيرة خروج دون جدوى ، إلى أن عرف بذلك صديقه الشاعر المرحوم كامل الشناوى ، فأوصل شكوى فريد بواسطة الصحفى الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل ، إلى الرئيس جمال عبد الناصر الذى أمر بإعطاء تأشيرة الخروج فوراً لفريد الأطرش . .

ومضى الموسيقار الراحل يعيش أيامه ولياليه فى بيروت بين الأصدقاء والصديقات ، ويحاول دائماً ألا تفوته ساعة واحدة دون الاستمتاع بحياته ، وكانت صدمته بوفاة صديقه الراحل عبد السلام النابلسى ، قاسية وعنيفة ولكنه تحملها بالصبر ، وتغلب على أحزانه وآلامه ، وكان يجد العزاء دائماً فى القلوب المحبة التى تحيط به من كل جانب ..

ويوماً ، فى نيسان « أبريل » ١٩٦٩ انفجرت فى بيروت اضطرابات سياسية وشعبية أدت إلى إعلان قرار منع التجول كل يوم من السادسة مساء وحتى السابعة صباحاً فى العاصمة اللبنانية وضواحيها ، وفوجئ الموسيقار بأن معظم أصدقائه ليس بوسعهم الوصول إلى بيته أو زيارته فى الليل ، وكان معنى هذا أن يقضى الليل وحده فى البيت — وهو أقسى ما يمكن أن يحكم به عليه ..

وأكثر ما كان يقلق فريد الأطرش ويعذبه هو أن يقضى الليل وحيداً ، بلا ناس ، بلا تسلية ، بلا أصدقاء يظلون معه إلى أن يطلع النهار ، ويصبح باستطاعته أن يأوى إلى فراشه بعد أن يكون قد تناول الأقراص المهدئة التى تمكنه من النوم ..

الوحدة كانت تعذب الموسيقار الراحل ..

كان يقول لى : بين أصدقائى وأحبائى أنسى آلامى وهمومى ، ولكن عندما أكون وحدى ، أصبح نهبًا للأفكار السوداء ، ويمر فى مخيلتى كل ما أعانيه ، ويتملكنى القلق ... وأتصور أشياء وأشياء .. لا أتمكن معها من الاستسلام للرقاد ..

وما دام يكره الوحدة ، ولا يستطيع النوم مبكراً ، فماذا يفعل فريد الأطرش

والأصدقاء كلهم خافوا مما يحدث فى الشارع ، فلم يخرجوا من بيتهم ، ومعظمهم لا يجرؤ على مخالفة قرار منع التجول والخروج من بيته ! .

ومرة قال لى : إيه الحل ؟ ؟

وأجبته : الحل هو أن تخرج أنت وتذهب إلى بيوت الأصدقاء ، فأنت فنان مشهور ومحبوب ، ولا أظن أن أحداً سوف يعترضك أو يمنعك من التجول ...

وقال لى : ده صحيح .. ولكنى أحب التغيير ، أريد أن يجىء الأصدقاء إلى كما أذهب أنا إليهم ..

وفكرت لحظة ، ثم قلت له :

– اطمئن .. سوف أوفر للأصدقاء الذين تريدهم بطاقات تجول ، تسهل لهم الانتقال من بيوتهم للسهر معك ..

وفعلا ، وزعت البطاقات المطلوبة على عدد محدود من الأصدقاء ، كان بينهم نور الدين القدسى وقرينته سلوى ، وعلى امتداد ثلاثة أسابيع هى المدة التى فرض فيها منع التجول ، كان فريد الأطرش يقضى لياليه مع هذه المجموعة القليلة من الأصدقاء .

وقبل أيام من انتهاء منع التجال قال لهم :

– اسمعوا .. لقد هجرت كل أصدقائى ، وشعرت بالارتياح إليكم ، حذار أن تغدروا بى بعد انتهاء منع التجول وتنصرفوا عنى .. إننى لا أستطيع أن أعيش بلا أصدقاء..

وضحك الجميع وقالوا بصوت واحد :

– وهل يمكن لأحد أن يرفض صداقة إنسان رائع مثل فريد الأطرش ..

وفجأة ، التفت الموسيقار إلى ... ، وإلى نور الدين وسلوى القدسى ، وقال :

– اسمعوا .. بعد مدة سوف أسافر إلى أوربا .. إيه رأيكم نكون كلنا مع بعض ؟ ؟ .

يا سلام وتبقى رحلة هايلة . !

واتفق الأصدقاء على الرحلة . . . وبقى على فريد الأطرش أن يحدد موعدها ! .

ولم يتحدد الموعد . .

ولم تبدأ الرحلة . .

لأن فريد بدأ رحلة أخرى . . رحلة الموت . رحمه الله .

محمد بديع سربية

obeikandl.com